فى الأدب الشرقى

من الأدب التركى

الزامر الأعمى

للدكتور عبد الوهاب عزام

جلست إلى دواوين الشعر التركى أقلب الأجيال بين يدى : أطالع مرة وجه « نجاتى » و «ذاتى» وأنظر أخرى الى « باقى» و « نفعى » وثالثة أرى « نديما » « وراغب باشا » و «الشيخ غالب » ثم أعمد الى العصور الاخيرة فاذا اسناسى و « نامق كمال » و « ضيا باشا » و « توفيق فكرت » و « عبد الحق حامد » وغير هؤلاء .

وبينا أطوى العصور باللمحات ، وأقلب الاجيال تقليب الصفحات ، بصرت « بالصفحات » ديوان الشاعر الكبير صديقى الكريم محمد بك عاكف . فسارعت الى الجزء الاول فانفتح عن قطعة عنوانها « الزامر الاعمى » فقرأتها ثم عمدت الى القلم فترجمتها نثراً إذضاق الوقت دون نظمها وأنا أقدمها للقراء كما جاءت عفو البديهة فى الاختيار والترجمة :

الزامر الأعمى

كنت أرى هذا السائل الضرير ، يتأبط ذراع قائده ، وفى يده قصبة عتيقة ، ينبعث منها صوت قوى ، كأنه النواح فى المأتم . ويمر به الناس فيقفون ويستمعون رحمة به ورثاء له . ثم يلقى كل منهم الى كشكوله البائس الذليل خمس بارات أو عشراً .

كان يبعث أناته فى قصبته المرضوضة فينبعث الى أذنه فى رنين العشرات والخمسات صدى البشرى ، ورسالة المودة ، رنات لاتفنى فى أنين النـاى ، الحزين ولكنها تؤلف نغمة أخرى تسايره . كم أحزنى هذا الصوت ! وكم أمضنى ذلك المرأى الأليم !

انه من دهره فى ليال متتابعة مديدة ، لا يتنفس فى آفاقها المظلمة صبح ، ولا يلوح فى وجهه لمحة من النور ، تحدث عن بسمات الرجاء والامل . كلا . ان هذا الوجه الاغبر ، هذا الوجه التعس قد أفتمت فوقه سحب متراكمة من الشقاء : ماضيه ظلام ، وظلام مستقبله . سله عن الحياة فهى حقيقة مظلمة مديدة . تراها نظراته حجابا من الظلمات دون حجاب . انه لا يبصر المصائب ، ولكن كل شىء حوله مصيبة ، يمتد به العمر الشقى فى هذا العالم البائس ، ويتحسس ظلامه الذى ماينتهى فلا يظفر بطريق تخرجه الى صبح الامل المسفر .

وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها مجنا فى عراك الايام ، ولكن يد الريح العابثة تنازعه هذا الستر كلما هبت ، فتكشف عن كتفيه ، وتلقى بصدره أمواج المطر والبرد .

***

بينما أخرج السوق بصرت بسائل يبعث أنينا حزينا ، وهو متكىء على أحجار تغشاها أوحال . وتحته حصير أبلاه مر الأيام ولا يظله الاطنف «سبيل» هناك . ولكن صوت الناس لاينطلق الآن بعيداً ، وانما سمعت عن كثب صدى كنسيس المحتضر .

ليت شعرى أكان يزمر لنفسه أم كان يئن ؟ لا أحد يسمع له ! ولا أحد يقف عنده ! ولكن المارة يلقون اليه بنظراتهم ثم تمضى بهم السبل . ومن ذا الذى يصيخ الى صدى تلفظه المقابر ؟ أيها المسكين ! وطن على الموت نفسك ! واقطع أنات الشكوى . لا لا . أصخ ! قد سمع فى الكشكول رنينا مديدا ! يالها نغمة من الرجاء مطربة ! يالها بشرى إستمع لها القلب والأذن معاً .

الماء يخترق الطنف ، فينسكب المطر من ثقوبه فيضرب الكشكول البائس ! سمع الأعمى الصوت فحسبه نبض الرحمة قد جاشت به قلوب المارة . فمديده ، مدها الى الكشكول ، ولكن هيهات ! قد خاب رجاؤه ، وكذب ظنه ، ارتدت يده المتجمدة من البرد ! ارتدت اليه فارغة مبتلة !